المبحث الأول

الاختيارات الشعرية بين حماستي أبي تمام والبحتري

تلتقي الاختيارات الشعرية في حماستي أبي تمام والبحتري في كثير من الخصائص المشتركة، فكلا الشاعرين المتخيرين (أبي تمام والبحتري) اتخذ من أشعار السابقين المادة الأساسية لمختاراته الشعرية، وهما يتقاربان في طريقة الاختيار المبنية على انتقاء أبيات بعينها من القصائد وتوزيعها على حسب الأغراض عند أبي تمام أو على حسب المعاني الشعرية عند البحتري، ناهيك عن وجود حماسيات اتفق الشاعران في اختيارها[1]، ولكن مع بعض الاختلاف في عدد الأبيات[2] أو في بعض ألفاظ الأبيات[3]، أو في نسبة الشعر إلى القائل[4]، بيد أن بعض هذه الحماسيات جاءت بلا زيادة أو نقصان في اختيارات الشاعرين وبترتيب متتالٍ في الحماستين، فالحماسية رقم (37) في حماسة أبي تمام المنسوبة للحارث بن هشام القرشي التي يقول فيها[من الكامل] [5]:

اللهُ يَعْلَمُ ما تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ ... حَتَّى عَلَوا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وعَلِمْتُ أنِّي إنْ أُقَاتِل واحداً ... أُقْتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدُوِّيَ مَشْهَدِي

فَصددتُ عَنْهُمْ والأَحِبَّةُ فِيْهِمُ ... طَمَعاً لهم بِعقَابِ يَوْمٍ سَرْمَدِي

([1]) اتفقت حماسة البحتري مع حماسة أبي تمام في بعض المقطوعات أو في أبيات منها في حوالي ثلاثين مقطوعة. ينظر: كتاب الحماسة بين أبي تمام والبحتري، رشاد عبد النبي عبده، إطروحة دكتوراه، قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر،1404هـ/ 1984م، ص531. وينظر: دواوين الحماسة، دراسة تاريخية وفنية، عبد البديع محمد عراق، ص415، 416.

([2]) مثال على ذلك الحماسية المنسوبة للشاعر شريح بن قرواش العبسي، وردت أربعة أبيات في حماسة أبي تمام، ووردت الحماسية نفسها في كتاب الحماسة للبحتري بيتين فقط .ينظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، الحماسية (140) 409/1. ينظر: كتاب الحماسة للبحتري، الحماسية (3)، 31/1.

([3]) مثال على ذلك الحماسية الثانية في حماسة أبي تمام للشاعر شهل بن شيبان الزماني، تكررت في الحماسية رقم (24) في حماسة البحتري مع تغيير بعض الألفاظ وترتيب الأبيات. ينظر: شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي، 32/1. كما ينظر: كتاب الحماسة للبحتري، 169/1.

([4]) مثال على ذلك الحماسية (152) في حماسة أبي تمام منسوبة للشاعر عبد الشارق بن عبد العزى الجهني، وهي نفسها الحماسية (221) في حماسة البحتري منسوبة للشاعر سلمة بن الحجاج الجهني. ينظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 442/1. كما ينظر: كتاب الحماسة للبحتري، 147.

([5]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 188/1.

تتكرر كما هي للشاعر نفسه دون زيادة أو نقصان في الباب السابع عشر في الحماسية رقم (184) من حماسة البحتري[1] .

والحماسية رقم (38) في حماسة أبي تمام وهي للفَرَّار السلمي[2]، والتي يقول فيها[من الكامل] [3]:

وكتيبَـــةٍ لَبَّسْـــتُها بِكَتيبَـــةٍ حَتَّـى إذَا الْتَبسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي

فَتَـرَكْتُهُمْ تَقِـصُ الرِّمَـاحُ ظُهُـورَهُمْ مِـنْ بَـيْنِ مُنْعَفِـرٍ وَآخَـرَ مُسْـنَدِ

مَـا كَـانَ يَنْفَعُنِـي مَقَـالُ نِسـائِهِمْ وَقُتِلْـتُ دُونَ رِجَالِهَـا لاَ تَبْعِـدِ

تتكرر نفسها في الباب السابع عشر في الحماسية رقم (185) من حماسة البحتري[4].

وإذا كان هذا التوافق بين أبي تمام والبحتري في اختياراتهما الشعرية يحمل دلالة على أن الشاعرين يجمعهما قدر من التماثل في الذوق الفني، ويرجح دلالة أخرى وهي أن البحتري قد يكون اطلع على حماسة أستاذه أبي تمام[5]، وأخذ منها ما يريد من أشعار وضمنها حماسته، فإن ما لا شك فيه أن بين الشاعرين تبايناً في مذهب الإبداع الشعري، واختلافاً في منهج الاختيار وتمايزاً في الذوق الفني، وفوارق في الاستعداد الفطري والموهبة الفردية، وغير ذلك من أوجه التباين والاختلاف التي انعكست على اختياراتهما الشعرية، فتفاوتت في مستوى تحقيق عناصر الفن وأبعاد الفكر والمزاوجة بينهما في أشعارها، وتمايزت في معايير الاختيار وطريقة العرض والترتيب ...وغير ذلك من الفروق التي أدت إلى ذيوع اختيارات أبي تمام في ديوان الحماسة وانتشارها الواسع في الأوساط الأدبية على مر العصور، واستئثارها باهتمام علماء اللغة ونقاد الشعر في مختلف البيئات العلمية، فيما خمل ذكر اختيارات البحتري وقل نفاقها، فلم تحظ بشيء يذكر من الذيوع والانتشار، ولم تلق من عناية الدارسين واهتمامهم شيئاً مما لقيته اختيارات أبي تمام قديماً وحديثاً.

من هنا فإن الدراسة ستركز في المبحث الأول من هذا الفصل – بمشيئة الله وعونه – على إبراز الخصائص المميزة بين اختيارات أبي تمام واختيارات البحتري والتي تشكل

---

(1) كتاب الحماسة للبحتري، 127/1.

(2) الفرار السلمي، واسمه حبان أو حيان بن الحكم بن مالك السلمي، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. حماسة أبي تمام، تحقيق عسيلان، 110/1.

(3) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي، 191/1.

(4) كتاب الحماسة للبحتري، 127/1.

(5) ذُكر في آخر كتاب الحماسة للبحتري النص الآتي"تم كتاب الحماسة الذي اختاره أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري من أشعار العرب للفتح بن خاقان معارضة لكتاب الحماسة الذي صنفه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي رحمهم الله بحمد الله ومنه، والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه وسلامه" .كتاب الحماسة للبحتري، 312/2.

في أغلبها الحد الفاصل بين الحماستين، فهي تكشف ضمناً عن منهج كل من الشاعرين ومعاييره الفنية في اختياراته الشعرية. وستناقش في المبحث الثاني طبيعة العلاقة بين مذهب كل من أبي تمام والبحتري في الإبداع الشعري ومذهبه في الاختيار .

أولاً: خصائص الاختيارات الشعرية في حماسة أبي تمام:

كان أبو تمام شاعراً موهوباً، يمتلك ذوقاً شعرياً ممتازاً، وحساً فنياً مرهفاً، ويحفظ الكثير من أشعار العرب، وله ثقافة لغوية عالية، وخبرة واسعة بالشعر وأسراره وتمييز جيده من رديئه، يقول الحسن بن رجاء:"ما رأيت أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام"[1].

لقد أفاد أبو تمام من هذه المؤهلات وأَعْمَلَهَا فيما وصل إليه من أشعار العرب، فانتقى منها ما ارتضاه ذوقه الشعري، واستجاده حسه المرهف، وعقله الذكي من القصائد والمقطعات، محتكماً في الاختيار إلى معايير فنية تنهض شاهدة على ذوق أبي تمام وعمق فهمه لفن الشعر وفاعليته في حياة العربي بوصفه جزءاً من بنية تفكيره وموجهاً رئيساً من موجهات حياته، ثم بوَّبَ اختياراته وصنفها على وفق منهج جديد في التبويب والتنظيم، يشهد له بالدقة وحسن العرض والترتيب، وبذلك فإن ديوان الحماسة لأبي تمام يشكل ــ بما فيه من إضافة وتجديد ــ

تحولاً مفصلياً في مسار تأليف كتب الاختيارات الشعرية.

على أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن أبا تمام لم يذكر شيئاً في حماسته عن طبيعة معاييره الفنية التي اهتدى إليها في اختياراته، وخصائص منهجه في عرضها وترتيبها، بيد أن المتن الشعري المتخير في ديوان الحماسة يمتاز ببعض الخصائص التي تكشف ضمناً عن معايير أبي تمام الفنية في الاختيار، ومنهجه في العرض والترتيب، وأهم هذه الخصائص ما يأتي:

الجودة الفنية:

تعد القيمة الفنية الخالصة هي معيار الانتقاء في اختيارات أبي تمام، وإلى هذا أشار أبو علي المرزوقي في مقدمة شرحه لديوان الحماسة بقوله:"إن أبا تمام كان يختار ما يختار (من شعر) لجودته لا غير... وأنه اختطف من دواوين الشعراء الأرواح دون الأشباح، واخترف الأثمار دون الأكمام[2]، بيد أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن اختيارات أبي تمام لا تكمن أهميتها في ثرائها الفني وجودتها فحسب، بل في قدرتها على تحقيق التوازن الرائع بين القيم الأخلاقية وعناصر الفن، فصيانة الشرف والحفاظ على طهارة العرض مثلاً كأهم القيم التي يسترخص الفارس العربي روحه وماله في الذب عنها تتجلى في اختيارات أبي تمام في

([1]) أخبار أبي تمام، الصولي، ص118.

([2]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 13/1.

صياغة فنية محكمة، فضلاً عن تضمينها الأمثال والحكم السائرة ، يقول السَّمَوْءَل بن عاديا، وقيل إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي [من الطويل] [1]:

إذا المرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

إذا المرْءُ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَها فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثّناءِ سَبِيْلُ

ويقول عمرو بن معد يكرب [مرفل الكامل] [2]:

لَيْسَ الْجَمالُ بِمِئْزَرٍ فَاعْلَمْ وَإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

إنَّ الْجَمالَ مَعَادِنٌ وَمَناقِبٌ أوْرَثْنَ مَجْدَا

ويقول سعد بن ناشب [من الطويل] [3]:

سَأغْسِلُ عَنِّي الْعارَ بِالسَّيْفِ جالِباً عَلَيَّ قَضاءُ اللهِ مَا كانَ جالِباً

وَأدْهَلُ عَنْ دَارِي وأجْعَلُ هَدْمَها لِعِرْضِيَ منْ باقِي الْمَذَمَّةِ حاجِبَا

فالسَّمَوْءَل يؤكد أن جمال المرء وقيمته الاجتماعية تنبع من شرفه المصون وعرضه الطاهر، أي في لباسه النفسي الذي تتدثر فيه روحه، بصرف النظر عما يطرحه على بدنه، وهذه القيمة الأخلاقية تبرز في صياغة فنية أخاذة، إذ يغادر اللفظان (اللؤم، العرض) دائرتيهما المعنويتين ويستحيلان في سياق الاستعارة المكنية إلى شيئين محسوسين بدلالة الفعل المستعار (يدنس) الذي يوحي بما فيه من دلالة مادية مثيرة للاشمئزاز على تقرير حسية (اللؤم، العرض) واقتلاع ما يمكن أن يبقى لهما من جذور ذهنية.

وعمرو بن معدي كرب يعلن في صورة تشبيهية بليغة أن جمال الإنسان ليس فيما يلبسه من ثياب بل في أصوله الزكية وأفعاله الكريمة التي تورث المجد والشرف.

والعار في أبيات الشاعر سعد بن ناشب يغادر دائرته المعنوية ويستحيل إلى شيء مادي محسوس في سياق الاستعارة المكنية بدلالة الفعل المستعار (سأغسل) الذي تحيل دلالته على عزم الشاعر/الفارس على تطهير ما لحق شرفه المصون وأصله النبيل من أدران العار بإدراك ثأره مستعملاً سيفه في أعدائه مهما تكن العواقب، مؤكداً أنه في سبيل الحفاظ على عرضه يتناسى داره ويجعل هدمها حاجباً وواقياً له من العار . وهكذا فإن أبا تمام يزاوج في اختياراته بين القيم الأخلاقية وعناصر الفن، فلا يغلب أحدهما على الآخر، بل يناسب بينهما في توازن رائع، كما يظهر ذلك في كثير من مواضع الدراسة، وهذه المزاوجة تعد من أهم

([1]) الحماسية رقم (15)، المصدر نفسه ، 122/1.
([2]) الحماسية رقم (34)، المصدر نفسه، 174/1.
([3]) الحماسية رقم (10) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ، 67/1.

السمات التي تكاد تنفرد بها اختيارات أبي تمام عن سائر كتب الاختيارات الشعرية العربية، يقول الدكتور محمد العمري"لقد تأملت اختيارات أبي تمام كثيراً، وقارنته بما أمكن الاطلاع عليه من ديوان الشعر العربي القديم، فلاحظت أن ميزته الأساسية كامنة في استحضار هذه العناصر (البناء الفني البلاغي، العمل الفكري في تأمل الكون والإنسان، والقيم الأخلاقية والمزايا البشرية) وحفظ التوازن بينها لدرجة يلتبس فيها بعضها ببعض، فالمحتوى الفكري العميق في الاختيار مسند بصياغة بلاغية محكمة لا تشوبها شوائب التشويش والقصور، ومراقب أخلاقياً في غير تزمت"[1].

عدم الاقتصار على المشهورين من الشعراء دون الأغفال:

لقد نتج عن احتكام أبي تمام إلى معيار الجودة الفنية في انتقاء اختياراته الشعرية، أن اشتملت اختياراته على المشهورين من الشعراء وغير المشهورين، فلم"يَعْمدْ من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال، ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه، المجيب لكل داع"[2]، بل ضمن اختياراته قصائد ومقطعات لشعراء مقلين وغير مشهورين، ولعله حرص على أن يتضمن ديوان الحماسة إلى جانب الأشعار المشهورة المتداولة نماذج جديدة من الأشعار التي لم تجر على ألسنة الناس، وبذلك يمنح اختياراته الشعرية قيمة خاصة في الأوساط الأدبية؛ لأنها تحتوي على مادة شعرية ليست في غيرها من كتب الاختيارات.

الامتداد الزمني لعصور الشعراء:

لقد نتج أيضاً عن احتكام أبي تمام إلى معيار الجودة الفنية في اختياراته الشعرية دون أن يعطي أي اعتبار لزمن الشاعر أن وسَّع في اختياراته الدائرة الزمنية لعصور الشعراء، فلم يقصر اختياره على الجاهليين والمخضرمين وشعراء صدر الإسلام كما فعلت المختارات الشعرية قبل

ديوان الحماسة، بل تجاوز ذلك إلى اختيار نماذج لشعراء عباسيين؛ كمسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وأبي نواس، ووصل به الأمر إلى اختيار نماذج شعرية لشعراء معاصرين له كإبراهيم بن عباس[3]..

وقد زعم بروكلمان أن الاختيارات الشعرية في ديوان الحماسة اقتصرت على الجاهليين والإسلاميين، وذلك في قوله:"وقصر أبو تمام اختياره على شعراء الجاهلية وصدر الإسلام"[4]، وهو بهذا يجانب الصواب ويجافي الحقيقة التي لا تخفى على القارئ العادي،

([1]) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص75.

([2]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 13/1.

([3]) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أحد أعيان الكتاب في العصر الأول من الدولة العباسية، وكان يعرف الشعر ويتنخل منه أحسنه، وقد عاصر أبا تمام، وتبادلا التقريض والتمادح. ينظر: الحماسة لأبي تمام، تحقيق د. عسيلان، 160/1.

([4]) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1959م، 77/1.

فضلاً عن الباحث المتخصص، فأبو تمام في اختياراته احتكم إلى معيار الجودة الفنية دون النظر إلى عصر الشاعر وزمنه، وبذلك فقد امتدت اختياراته من العصر الجاهلي إلى عصره، وقد ذكر المرزوقي أن أبا تمام"اعتسف في دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرَمِهِم وإسلامِيّهم ومولَّدِهم....إلخ"[1].

الإكثار من شعر الطائيين:

استأثر شعراء قبيلة طيء بنصيب وافر في اختيارات أبي تمام في ديوان الحماسة[2]، ويمكن تعليل إكثار أبي تمام من شعر طيء في اختياراته، برغبته في إشهار شعراء قومه، ونشر فضائلهم، ولا غرابة في ذلك، فهو واحد منهم، وهم قومه وأبناء عشيرته الذين نشأ بينهم، ونهل من أخلاقهم، وتربى على أشعار شعرائهم، فحفظ الكثير منها، وتغنى بمكارمهم في أشعاره، وفاخر بأمجادهم، كما في قوله [من الطويل] [3]:

اذا طَيِّـئٌ لـم تَطْـوِ مَنْشُـورَ بَأْسِـها فـأنفُ الـذي يُهْـدِي لهـا السُّـخْطَ جـادِعُ
هِـيَ السَّـمُّ مـا يَنْفَـكُّ فـي كـلِّ بلـدةٍ تَسِيـــلُ بِـــهِ أَرماحُهـــــمْ وهْـــوَ نـــاقِعُ

وبالتالي فلا لوم عليه ما دامت اختياراته من شعر الطائيين تمتلك من الجودة والبراعة ما يؤهلها للاختيار.

([1]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ، 13/1.

([2]) بلغ عدد الشعراء الطائيين الذين اختار لهم أشعاراً في حماسته حوالي خمسة وخمسين شاعراً، وهو قد يعين اسم الشاعر وينسب الأبيات التي اختارها إليه، فيقول: (قال الأعرج المعني، وقال برج بن مسهر الطائي، وقال إياس بن قبيصة الطائي...وغيرهم.) وقد يغفل اسم الشاعر مكتفيا بالإشارة إلى القبيلة، فيقول:(قال بعض بني طيء، قال بعض اللصوص من طيء، قالت امرأة من طيء) وقد يحدد اسم الفخذ الطائي أو العشيرة ،كقوله: (قال بعض بني بولان من طيء، ، قال بعض بني جرم من طيء).

([3]) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، 588/4 .

تصنيف الاختيارات حسب الموضوع الشعري:

يعد ديوان الحماسة لأبي تمام أول مجموع شعري تصنف فيه الأشعار على حسب الموضوع الشعري، فقد اعتمد الفن الشعري أساساً للاختيار، وَقَسَّمَ حماسته إلى عشرة أبواب، كل باب منها يختص بفن من فنون الشعر العربي، وقد جاء ترتيب هذه الأبواب على النحو الآتي: (1) باب الحماسة .(2) باب المراثي.(3) باب الأدب .(4) باب النسيب (5) باب الهجاء (6) باب الأضياف والمديح.(7) باب الصفات .(8) باب السير والنعاس .(9) باب الملح .(10) باب مذمة النساء . وبذلك فإن أبا تمام يعد أسبق المؤلفين في اتباع طريقة تبويب المختارات بحسب الفنون الشعرية، ثم تبعه بعد ذلك المصنفون وساروا على نهجه، على أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن أبا تمام لم يفرد باباً مستقلاً للفخر ضمن أبواب الحماسة، ولا ضمه إلى غيره وسماه معه، كما فعل بالأضياف والمديح وبالسير والنعاس، وكأنه لاحظ أن الفخر يتلبس الشعر الحماسي فيما يتصل بالفخر بالشجاعة والقوة والفروسية وما إليها إلى درجة يصعب الفصل بينهما، كما يتلبس بشعر الأضياف فيما يتصل بالفخر بالقرى والجود والكرم وما إليها، وبذلك يصعب تمييزه عن بابي الحماسة والأضياف فأدمجه فيهما، فما يكون فخراً بالشجاعة والقوة والفروسية وما يدور في فلكها فمن الحماسة، وما يكون فخراً بالقرى والجود والكرم وما يندرج في إطارها فمن الأضياف.

ترتيب الحماسيات بطريقة يغلب عليها التناسق والتلاحم:

رتَّبَ أبو تمام اختياراته الشعرية بطريقة يغلب عليها التلاحم والتناسق فيما بينها، فكل حماسية تأخذ في التآلف مع ما قبلها، وتنادي ما بعدها.

لقد افتتح أبو تمام باب الحماسة – وافتتح الكتاب كله – بحماسية لأحد شعراء بني العنبر يقال له قريط بن أنيف، يحمس فيها قومه ويهيجهم؛ لينتقموا له من أعدائه ومهتضميه، ويستردوا له حقه، ويعيدوا له إبله التي استبيحت، ومطلعها يقول [من البسيط] [1]:

لَوْ كُنتُ مِنْ مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبِلِي بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بن شَيْبَانا
إذاً لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ عند الحفيظةِ إنْ ذُو لَوثةٍ لانَا

وفي الحماسية الثانية يؤكد شَهْلُ بن شيبانَ الزمَّاني على أهمية الصفح عن الإخوان حتى يرجع الطائش إلى صوابه لاستبقاء الأخوة والحفاظ على الود، ولكن بشرط ألا يفهم الطرف الآخر أن هذا الصفح ناتج عن ذلة أو ضعف، يقول شهل [من الهزج] [2]:

صَفَحْنا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ وَقُلْنا القَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الأَيَّامُ أن يَرْجِعْ نَ قَوْماً كَالَّذِي كَانُوا فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ

([1]) الحماسية رقم (1)، شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 20/1.
([2]) الحماسية رقم (2)، المصدر نفسه، 32/1.

فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ ولم يَبْقَ سوَى العُـدْوَا نِ دِنَّاهُـــــمْ كَمَـــــا دَانُـــــــوا

والحماسية الثالثة تتحدث عن الفوارس وصدقهم في المعركة، فهم لا يكرهون القتال ولا يضجرون من الحرب ومقاساة شدائدها، يقول أبو الغول الطهوي [من الوافر] (1):

فَـدَتْ نَفْسِـي وَمَـا مَلَكَـتْ يَمِينِـي فَـوَارِسَ صَـدَّقُوا فِـيهِمْ ظُنُـونِي
فـوَارِسَ لا يَمَلُّـونَ المـنَايَا إذا دَارَتْ رَحَ الْحَرْبِ الزَّبُونِ

والحماسية الرابعة يتحدث فيها جعفر بن علبة الحارثي عن مأزق وقع فيه هو وقومه، فلم يكن أمامهم غير أمرين لا ثالث لهما، إمَّا الاستسلام والوقوع في الأسر، أو الامتناع والقتال حتى الموت، فاختاروا القتال على الاستسلام؛ لأنهم لا يعلمون كم بقي من أعمارهم إن عدلوا عن الحرب، واعتمدوا على سيوفهم القواطع في مواجهة المأزق فتجاوزوه، يقول جعفر [من الطويل] (2):

أَلَهْفَـى بِقُـرَّى سَـحْبَلٍ حِـيْنَ أَحْلَبَـتْ عَلَيْنَـا الْوَلايَـا وَالْعَـدُوُّ الْمُبَاسِـلُ
فَقَـالُوا لنَـا ثِنْتَـانِ لاَ بُـدَّ مِنْهُمَـا صُـدُورُ رِمَـاحٍ أُشْـرِعَتْ أَوْ سَلاسِـلُ
فَقُلْنَـا لَهُـمْ تِلْكُـمْ إذاً بَعْـدَ كَـرَّةٍ تُغَـادِرُ صَـرْعَى نَوْءُهَـا مُتَخَـاذِلُ
ولَمْ نَدْرِ إنْ جِضْنَا مِنَ الموتِ جَيْضَـةً كَـمِ الْعُمْـرُ بَـاقٍ والمـدَى مُتَطَـاوِلُ
إذا مَا ابْتَدَرْنَا مَأزِقاً فَرَجَتْ لَنا بِأَيْمانِنَا بِيْضٌ جَلَتْها الصَّياقلُ

والحماسية الخامسة تذكر أنه لا يكشف المحن ويتجاوز الصعاب إلا الحر ابن الحرة، فهو إذا رأى الموت أمامه يقبل عليه ولا يفر منه، ومع أن هذه الحماسية لشاعر الحماسية السابقة نفسه إلا أن المعاني التي ساقها في هذه غير المعاني التي ساقها في تلك، فأبو تمام يحرص على عدم تكرار المعاني في مختاراته، وهذا من يقظتة الفنية، وحاسته اللماحة التي لازمته في الاختيار، يقول جعفر [من الطويل] (3):

لَا يَكْشِـفُ الْغَمَّـاءَ إلّا ابـنُ حُـرَّةٍ يَـرَى غَمَـرَاتِ الْمَـوْتِ ثُـمَّ يَزُورُهَـا
نُقَاسِـمُهُمْ أسْـيَافَنَا شَـرَّ قِسْـمَةٍ فَفِينَا غَوَاشِيْهَا وفِيهِمْ صُدُورُهَا

(1) الحماسية رقم (3)، المصدر نفسه، 39/1.
(2) الحماسية رقم (4)، شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ، 44/1.
(3) الحماسية رقم (5)، المصدر نفسه، 49/1.

وهكذا تسير بقية الحماسيات متناسقة متآلفة تأخذ بعضها برقاب بعض في صورة ظلت تحتفظ بأصالتها على مر القرون حتى يومنا هذا، وتشهد لأبي تمام بعقليته المنظمة وذوقه الفني الممتاز في الانتقاء والعرض والترتيب. وكل حماسية منها جاءت "متماسكة الأجزاء ، مرتبطة المعاني، متلاحمة النسج، كأنما هي من صنيع عصره ومن تراث بيئته، ومن أقوال من هم في طبقته من فحول المحدثين"[1]، وهذا الملمح مطرد في حماسياته كلها.

(1) أبو تمام بين أشعاره وحماسته، محمد بركات حمدي أبو علي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، 1982م، ص852.

عدم النسبة وإغفال المناسبة:

لم يلتزم أبو تمام في كل ما اختاره من شعر في ديوان حماسته بنسبته إلى قائله والتصريح باسمه، بل أغفل ما يقرب من (287) حماسية من اختياراته من دون تعيين قائليها[1]، وما يغفله إما أن يأتي منسوباً إلى شاعر مجهول بالكلية، وعندئذٍ يُصَدِّرُهُ بقوله: (وقال آخر ، أو قالت امرأة، أو قال بعضهم)، وإما أن يأتي منسوباً إلى رجل مجهول الاسم مع إشارة تحيل إلى القبيلة، أو البيئة، كأن يقول: (قال رجل من بلعنبر، وقال بعض القرشيين، وقال بعض الفزاريين، وقال بعض بني طيئ، وقال أعرابي...)، كما جاءت بعض الحماسيات منسوبة لشاعرين، مثل الحماسية رقم (15) التي نسبها " لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، وقيل إنها للسَّمَوْءَل بن عاديا "[2]، ومن النادر جداً أن تتصدر الحماسية إشارة إلى المناسبة التي قيلت فيها الأبيات[3]، ولعل أبا تمام أراد من إغفال ذكر المناسبة التي قيلت فيها أشعار اختياراته أن يحرر هذه القصائد والمقطعات التي اختارها من إطارها الضيق الذي قيلت فيه وزمانها ومكانها المحدودين؛ لتنطلق في فضاءات زمانية ومكانية رحبة، واستثمارها في مواقف أخرى غير الموقف الذي قيلت فيه، وبالتالي يتم إسقاطها على مواقف معاصرة للشاعر المتخير فتحرك وجدان الإنسان العربي وتبعث فيه روح القيم التي تحملها فيتفاعل معها ويستمد منها ما يلبي حاجته ويشبع رغباته ويخرج منها بتصورات وانطباعات تبعاً لاستعداده الفني وظروفه المحيطة به، بيد أن الشراح أو بعضهم نسبوا ما أغفل أبو تمام نسبته.

([1]) ينظر: حماسة أبي تمام وشروحها، ص36.

([2]) ينظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 110/1. وغيرهما.

([3]) من الحماسيات التي نجد فيها إشارة إلى المناسبة التي قيلت فيها الحماسيات رقم (10) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 67/1 .
والحماسية رقم (28) 155/1.والحماسية رقم (42)199/1...وغيرها) .

انتقاء مقطوعات شعرية أو عدة أبيات من قصيدة

عَمِدَ أبو تمام في اختياراته إلى انتقاء مقطوعات شعرية أو عدة أبيات من قصيدة، فلم يلزم نفسه باختيار قصائد كاملة كما فعل من سبقوه في اختيار نماذجهم كحماد الراوية والمفضل والأصمعي والقرشي، فأغلب اختياراته تتراوح بين ستة أبيات وتسعة أبيات على أنها قد تكون في بعض الأحيان بيتاً واحداً.

لقد أكثر أبو تمام في اختياراته من المقطعات الشعرية انسجاماً مع روح العصر الذي يعيش فيه وتناغماً مع إيقاعاته الداعية إلى إبعاد فضول القول وحشو الكلام والاكتفاء بما قَلَّ من القصيدة ودَلَّ، فقد"انتشرت نزعة التجديد في الشعر في عهد العباسيين، وتغير أيضاً ذوق الأدباء، ولم يعد أحد يطيق الصبر على قراءة القصائد الطوال، بل اكتفوا بتذوق القطع المختارة[1]، فجاءت اختيارات أبي تمام فضلاً عن انسجامها مع روح العصر وحاجة المتأدبين جامعة بين التركيز والإيجاز فيسهل حفظها وترديدها والاستشهاد بها في مواقف الحياة المماثلة.

التوسع في مفهوم الباب:

لقد كان أبو تمام يتوسع في مفهوم الباب فيدخل فيه مقطوعات يبدو للوهلة الأولى أنها بعيدة عن باب الحماسة، ولا تتضح صلتها به إلا بعد إنعام النظر في المعنى . فالناظر في باب الحماسة من حماسة أبي تمام يلاحظ أن المقطوعات التي خرجت عن سياق الحرب والفروسية وما في فلكهما ليست "مقطوعة أو اثنتين بل كانت من الكثرة إلى الحد الذي لا يمكن أن تعد سهواً أو نشازاً"[2]، ففي قول جعفر بن علبة الحارثي [من الطويل] [3]:

هوَايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمَانِينَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ

عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنَّى تَخَلَّصَتْ إلَيَّ وبابُ السِّجْنِ دُوني مُغْلَقُ

أتَتْنا فَحَيَّتْ ثُمَّ قامتْ فَوَدَّعَتْ فَلَمَّا تَوَلَّتْ كادَت النَّفْسُ تَزْهَقُ

فَلاَ تَحسبي أنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ لِشَيْءٍ وَلاَ أنِّي مِنَ الْمَوْتِ أفْرَقُ

فهذه الأبيات نفثات وجدانية يظهر فيها الشاعر نفسه لمحبوبته"مستهيناً بما اجتمع عليه من الحبس والتقييد ومتجلداً عندها بالصبر على الهوى والتهالك فيه وبهذا دخلت الأبيات في الحماسة[4] ، وهو ما يعني أن أبا تمام لم ينظر إلى الحماسة بمعناها الضيق المحسوس من الكر والفر والإيقاع بالأقران، ولكنه نظر إلى معناها الواسع الذي يعني الشدة في كل شيء .

([1]) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، 13/1.
([2]) دواوين الحماسة، دراسة تاريخية وفنية ، ص23.
([3]) الحماسية رقم (6)، شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 51/1.
([4]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ، 43/1.

تصرف أبي تمام في تغيير بعض ألفاظ الأبيات المتخيرة:

يذكر المرزوقي في مقدمة شرحه لديوان الحماسة أن أبا تمام كان إذا وجد لفظة تشين ما يختاره من الشعر استبدلها بأحسن منها، وذلك في قوله حاكياً عن صنيع أبي تمام في اختياراته:"... حتى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم، فقابل ما في اختياره بها"[1]، فهل أباح أبو تمام لنفسه حرية التصرف فيما لا يروق له من ألفاظ اختياراته الشعرية؟

لعل من المفيد في مقامنا هذا الإشارة إلى أن المرزوقي لم يكن يهدف من وراء حديثه عن تدخل أبي تمام في تغيير بعض الألفاظ التي لا تروقه في اختياراته الشعرية إلى الإنكار عليه، والتقليل من شأن اختياراته، والحط من مكانتها، بل على العكس من ذلك تماماً، لقد أراد المرزوقي أن يظهر قدرات أبي تمام الفنية، ويبرز حسن تصرفه في تغيير الألفاظ التي لا تروقه بألفاظ مناسبة، كما يتجلى ذلك في قوله معلقاً على بعض أبيات الحماسية رقم (11) لتأبط شراً: "على أني قد نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيراً من ألفاظ البيوت التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له"[2].

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الدارسين المحدثين قد تلقوا رأي المرزوقي بالقبول والتسليم ، فالدكتور أحمد أمين يذكر في مقدمة تحقيق شرح الحماسة للمرزوقي أن اختيار أبي تمام كان"اختياراً موفقاً، لأن جامعه شاعر ممتاز مكنه شعره من أن يختار أحسن ما تقع عليه عينه ...وإذا كانت هناك كلمة نابية غيرها بخير منها، فكان مختاراً ومنقحاً في وقت واحد"[3]، أما ناصر الدين الأسد فقد انطلق من رأي المرزوقي في استبعاد ديوان الحماسة من مصادر الشعر الجاهلي فقال:"بل إن شيئاً آخر لا يقل عن سابقه في المباعدة بين هذا الكتاب وبين بحثنا، وهو صنيع أبي تمام فيما اختاره من تغيير للنص الشعري مما أوضحه المرزوقي في مقدمته"[4]، بيد أن بعض الدارسين المحدثين ناقشوا ما أورده المرزوقي من أدلة على تصرف أبي تمام في اختياراته بتغيير بعض الألفاظ التي لا تروق له، ورأوا أنها لا تنهض حجة كافية على صحة ما ذهب إليه، فالدكتور عبد البديع عراق يرى أن المرزوقي "لم يذكر لنا إلا مثالاً واحداً من هذا (الكثير) الذي غيره أبو تمام هو شعر عارق الطائي في الحماسية رقم(605) من شرح المرزوقي، وهو مثال لا يكفي للتدليل على هذا (الكثير)" [5]، أما الدكتور عبدالله عبد الرحيم عسيلان فإنه يرى أن احتجاج المرزوقي على صحة رأيه

([1]) المصدر نفسه، 14/1.
([2]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 84/1.
([3]) المصدر نفسه، 3/1.
([4]) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1969م، ص582.
([5]) دواوين الحماسة، دراسة تاريخية وفنية،ص418.

بمقابلة ما في اختيارات أبي تمام بدواوين الشعراء ليس دليلاً قاطعاً "وكأن المرزوقي لم يضع في اعتباره ما قد يطرأ من الاختلاف في رواية الشعر، إذ كثيراً ما تأتي الأشعار مروية بأكثر من رواية، فلم لا يكون من هذا القبيل صنيع أبي تمام فيما أشار إليه المرزوقي من التغيير في ألفاظ بعض أبيات الحماسة"[1]. وقد لاحظت الدراسة اختلاف الروايات في البيت الواحد في أشعار الحماسة، ففي الحماسية رقم (11) يقول تأبط شراً [من الطويل] [2]:

فأبــتُ إلــى فَهْــمٍ ولــم أك آيبــاً وكَـمْ مثلهـا فارَقْتُهـا وهـي تصـفرُ

يذكر المرزوقي في سياق شرح هذا البيت ثلاث روايات، الأولى: (ولم أك آيباً) وهو اختيار أبي تمام وقد استحسنها المرزوقي . والثانية: (ولم آل آيباً) وقد اكتفى المرزوقي بذكرها دون التعليق عليها . والثالثة: (وما كدت آيبا) وقد علق عليها المرزوقي بقوله: "واختار بعضهم أن يروى: فأبت إلى فهم وما كدت آيباً، وقال: كذا وجدته في أصل شعره...ولا أدري لم اختار هذه الرواية؟ ألأن فيها ما هو مرفوضٌ في الاستعمال شاذٌ، أم لأنه غلب في نفسه أن الشاعر كذا قاله في الأصل؟ وكلاهما لا يوجب الاختيار"[3] .

إن في الحماسة ألفاظاً كثيرة من قبيل الوحشي والمستثقل والمستكره لم يطرأ عليها أي تغيير[4]؛ فأبو تمام ليس من طبعه أن يغير لفظة من شعره، بل كان يحرص على بقائها وإن بدت مستهجنة مع علمه بذلك[5] وإذا كان هذا موقف أبي تمام من شعره، فمن المستبعد أن يعتدي على شعر غيره بالتصرف والتغيير في ألفاظه[6].

وأياً كان الأمر فإن علماء اللغة ودارسي الأدب يجمعون على تزكية أبي تمام في الحماسة وتزكية الحماسة ونصوصها، بل إن الزمخشري يعد صنيع أبي تمام في الحماسة داعياً للوثوق بشعره، وذلك في قوله حاكياً عن أبي تمام: "وهو وإن كان محدثا لا يستشهد

([1]) حماسة أبي تمام وشروحها، ص41.
([2]) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 84/1.
([3]) المصدر نفسه، 83/1، 84.
([4]) مثل (جضنا) في الحماسية رقم (4)، و(مزءودة) في الحماسية رقم (12) وزبونات وتيحان في الحماسية رقم (18) وغيرها.
([5]) أورد الصولي في كتابه أخبار أبي تمام هذا الخبر "حدثني به علي بن إسماعيل قال، حدثني علي بن العباس الرومي قال، حدثني مثقال قال: دخلت على أبي تمام وقد عمل شعراً لم أسمع أحسن منه، وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرها، وعلم أني قد وقفت على البيت، فقلت له: لو أسقطت هذا البيت! فضحك وقال لي: أتراك أعلم بهذا مني؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة، كلهم أديب جميل متقدم، فيهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره ويرى مكانه، ولا يشتهي أن يموت، ولهذه العلة وقع مثل هذا في أشعار الناس". أخبار أبي تمام، ص 114، 115.
([6]) ينظر: حماسة أبي تمام وشروحها، ص42.

بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه"[1].

نخلص مما سبق إلى أن أبا تمام في اختيارات ديوان الحماسة يعد رائداً في مسار حركة التأليف عند العرب حتى عصره بما أضفى عليه من رؤى جديدة نلمحها في حسن العرض والتقسيم لأبواب حماسته كما نلمحها في المزاوجة بين الفكرة والفن، واختيار نماذج من أشعار النساء، وتوسيع الدائرة الزمنية لاختياراته الشعرية لتصل إلى اختيار نماذج من أشعار المعاصرين له وغير ذلك من الرؤى الجديدة التي أضفاها على اختياراته الشعرية فكانت نموذجاً للشعراء وعلماء الأدب واللغة الذين صنفوا حماسات على غرارها.

ثانياً:خصائص الاختيارات الشعرية في حماسة البحتري:

لقد كان تأثير ديوان الحماسة لأبي تمام على مؤلفي كتب الاختيارات الشعرية من بعده واضحاً، فقد قلدوه وألفوا دواوين حماسة على غراره، وعلى رأس هؤلاء تلميذه البحتري في حماسته، فلم يكن أبو تمام أستاذاً للبحتري في الإبداع الشعري فحسب، بل كان أستاذه في الاختيار والتأليف.

وإذا كان لأبي تمام فضل الريادة في الإبداع والتأليف، فإن البحتري كان له فضل الخروج من دائرة التقليد، وسعيه إلى طرق أبواب الإبداع، فكما أنه غاير أبا تمام في مذهب الإبداع الشعري، وكانت له طريقته الخاصة التي تميزه عن أبي تمام حتى بات كل واحد منهما يمثل اتجاهاً فنياً مغايراً للآخر في الإبداع الشعري، فإنه في تأليف حماسته وإن كان قد وقف على حماسة أبي تمام، ولاحظ معاييرها الفنية في الاختيار ومنهجها الجديد في التنظيم والتبويب، لم يشأ أن يكون مقلداً لأبي تمام، فاختط لنفسه منهجاً خاصاً يغاير في بعض خصائصه منهج أبي تمام، فما هي أبرز معايير البحتري وخصائص منهجه في اختياراته الشعرية؟ .

تجدر الإشارة إلى أن البحتري مثل أبي تمام لم يذكر هو الآخر شيئاً عن خصائص منهجه وطبيعة معاييره الفنية التي اهتدى إليها في اختياراته، بيد أن المتن الشعري المتخير في كتاب حماسته يمتاز ببعض الخصائص التي يمكن أن تكشف ضمناً عن معاييره الفنية في الاختيار، وخصائص منهجه في العرض والترتيب، وأهم هذه الخصائص ما يأتي:

1. ترتيب الاختيارات حسب المعنى الشعري:

إذا كانت حماسة أبي تمام تقوم على أساس تصنيف الاختيارات الشعرية على حسب الموضوع الشعري، فإن حماسة البحتري تقوم على أساس تصنيف الاختيارات الشعرية على أساس المعاني الشعرية.

لقد اهتم البحتري في اختياراته بتفصيل المعاني العامة إلى معان جزئية، فالشعر الحماسي الذي أجمله أبو تمام في باب واحد هو باب الحماسة، يتفرع في حماسة البحتري إلى سبعة وعشرين باباً، استقصى فيها البحتري تفصيلاته الدقيقة وجزئياته العديدة، ووضع لكل

([1]) تفسير الكشاف، 119/1.

معنى جزئي عنواناً خاصاً به، في باب له وحده، واختار له من القصائد والمقطعات ما يناسبه، فالباب الأول في حماسته، وهو (فيما قيل في حمل النفس على المكروه عند الحرب) يتكون من ثلاث عشرة حماسية افتتحه البحتري وافتتح مجموعه كله بحماسية لعمرو بن الإطنابة الخزرجي، يقول فيها [من الوافر] [1]:

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى إِبَائِي وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيْحِ

وإِعْطَائِي عَلَى الْمَعْسُورِ مَالِي وَضَرْبِي هامَةَ البَطَلِ الْمُشِيْحِ

والحماسية الثانية لعمرو بن معدي كرب الزبيدي، يقول فيها [من الطويل] [2]:

وَقَفْتُ كَأَنِّي لِلرِّمَاحِ دَرِيَّةً أُقَاتِلُ عَنْ أَحْسَابِ جَرْمٍ وَفَرَّتِ

وَجَاشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِها فاسْتَقَرَّتِ

وثاني أبواب حماسة البحتري هو (فيما قيل في الفتك) يتكون من ثمان حماسيات، افتتحه البحتري بحماسية لمنظور بن الربيع العامري، يقول فيها [من الطويل] [3]:

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي إذا رُمْتُ فَتْكَةً بِحَرْبِي لَمْ أَنْظُرْ بِهِ أَنْ يُبَادِيَا

وَأُقْدِمُ إِقْدَامَ السِّنانِ وَيُتَّقَى بِي الْأَشْوَسُ الصِّنْدِيدُ إِنْ كَانَ عَادِيَا

والباب الثالث (فيما قيل في الإصحار للأعداء والمكاشفة لهم وترك التستر منهم) يتكون من سبع حماسيات، افتتحه البحتري بمقطوعة لقيس بن رفاعة الأنصاري[4]، يقول فيها [من البسيط] [5]:

أنا النَّذِيْرُ لَكُمْ مِنِّي مُجَاهَرَةً كَيْلَا أَلَام على قَذْعٍ وَإِنْذَارِ

فإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي اليَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيَاً ظاهِرَ العَارِ

وهكذا تسير بقية أبواب الشعر الحماسي السبعة والعشرين في حماسة البحتري في نسق لا يخلو من التلاحم والتآلف، مصورة المواضيع الجزئية والمعاني التفصيلية لحوادث

([1]) الحماسية (1) ، كتاب الحماسة للبحتري، 29/1.
([2]) الحماسية (2)، كتاب الحماسة للبحتري ، 30/1.
([3]) الحماسية (14)، المصدر نفسه، 37/1.
([4]) هو قيس بن رفاعة الأنصاري، من بني واقف بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس، شاعر جاهلي مقتدر، أدرك الإسلام فأسلم، وكان أعوراً. كتاب الحماسة للبحتري، 42/1.
([5]) الحماسية (22)، كتاب الحماسة للبحتري ، 42/1.

الحرب وسجايا المحاربين، فالباب الرابع فيما قيل في مجاملة الأعداء والباب الخامس فيما قيل في الإطراق حتى تمكن الفرصة، والباب السادس فيما قيل في بقاء الإحنة ونمو الحقد وإن طال عليهما الزمان، والباب السابع فيما قيل في الأنفة والامتناع من الضيم والخسف، والباب الثامن فيما قيل في ركوب الموت خشية العار، والباب التاسع فيما قيل في الاستسلام والإغضاء على الذل بعد الامتناع...إلى غير ذلك من المعاني الحماسية التي تلهب المشاعر وتحفز الهمم وتدفع الفرسان إلى خوض غمار الحرب ورفض قبول الدية والأخذ بالثأر والإصرار على الانتقام.

على أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن جميع الأبواب في حماسة البحتري جاءت متناسقة تماما مع أساس منهجه في التصنيف ، وهو الأساس المعنوي ما عدا الباب الأخير منها ، وهو الباب الرابع والسبعون بعد المئة، (باب المراثي)، فهذا الباب يقوم على أساس الموضوع الشعري؛ لأنه يعتمد فيه على الفن الشعري أساساً للاختيار ، وهو فن الرثاء، ومع ذلك فإن البحتري قصره على مراثي النساء دون الرجال، وكان عليه أن يفرع معنى الرثاء إلى معان جزئية تفصيلية، ويورد لكل معنى جزئي نماذج مصورة من أشعار الرجال والنساء جميعاً، ويفرد له باباً خاصاً به انسجاماً مع منهجه الذي ارتضاه لنفسه وسار عليه في أبواب حماسته كلها.

2.تفتيت القصيدة الواحدة وتوزيع أجزائها على أكثر من باب:

لقد أدى تفصيل البحتري للمعاني العامة إلى معان جزئية إلى تفتيت أوصال القصيدة أو المقطعة الشعرية، وتوزيعها على أكثر من باب، وبسبب هذا التفصيل فقد غلب على اختياراته النتف والمقطعات والأبيات المفردة فالأبواب السبعة والعشرون التي يشكل مجموعها الشعر الحماسي تتكون من (249) نتفة ومقطعة، و(37) بيتاً مفرداً، و(11) قصيدة.

لقد لاحظت الدراسة أن تفريع البحتري لمعاني الحماسة في بعض المواضع وتوزيعها على أكثر من باب أدى إلى تفتيت المعنى الواحد في القصيدة أو القطعة الشعرية وتقطيع أوصاله إلى معان جزئية حرفية معزولة عن المعنى المركزي الذي تسري روحه في الأبيات من بدايتها حتى نهايتها، وعلى سبيل المثال فإن الحماسية رقم (32) في حماسة أبي تمام، وهي لكبشة أخت عمرو بن معد يكرب تدعو فيها إلى الأخذ بثأر أخيها، تقول فيها [من الطويل] (1):

(1) الحماسية رقم (52)، شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي، 217/1.

أرْسَـلَ عَبْـــدُ اللهِ إذ حَـــانَ يَوْمُـــهُ إلَـى قَوْمِـهِ لا تَعْقِـــلُوا لَهُـمُ دَمِـي
وَلاَ تَأْخُـذُوا مِـنْهُمْ إفَـالاً وَأبْكُـــرًا وَأُتْـرَكَ فِـي بَيْـتٍ بِصَـــعْدَةَ مُظْلِـمِ
ودَعْ عَنْـكَ عمْـراً إنَّ عَمْـرًا مُسَـالِمٌ وَهَـل بَطْـنُ عَمْـرٍو غَيْـرُ شِـبْرٍ لمطْعَـمِ
فـإنْ أَنْـتُمُ لَـمْ تَثْـأَرُوا وَاتَّـدَيْتُمُ فَمشُّـوا بِـأَذَانِ النّعَـامِ المصَـلَّمِ
ولا تَـرِدُوا إلَّا فُضُـــولَ نِسَـائِكُمْ إذَا ارْتَمَلَـــتْ أَعْقَـابُهنَّ مِـنَ الـدَّمِ

إن هـذه الحماسـية قـد وردت فـي حماسـة البحتـري فـي موضـعين، فالبيتـان الأولان أوردهما البحتري في الحماسية (111) من الباب العاشر (فيما قيل في التحريض على القتل وترك قبول الدية) للشاعرة نفسها،أما البيتان (4، 5) فقد أوردهما البحتري في الحماسية (31) من الباب الرابع "فيما قيل في مجاملة الأعداء وترك كشفهم عما في قلوبهم"وهما منسوبان خطأ إلى القتَّال الكلابي، وبهذا التقسيم فقدت القطعة كثيراً من حيويتها الفنية وأجوائها المفعمة بالتحريض على الأخذ بالثأر وظهرت في صورة معانٍ جزئية معزولة وباهتة.

ومثل ذلك نجده في حماسية معن بن أوس وهي مكونة من اثني عشر بيتاً جاءت بكاملها في حماسة أبي تمام، في الحماسية رقم (404)، يقول معن[1] [من الطويل]:

(1) الحماسية رقم (404)، ديوان الحماسة، المرزوقي، 1126/3.

لَعَمْـرُكَ مَـا أدْرِي وَإنِّـي لأَوْجَـلُ عَلَـى أيِّنَـا تَغْـدُو الْمَنِيَّـةُ أوَّلُ
وإنِّـي أخُـوكَ الـدَّائمُ الْعَهْـدِ لَـمْ أَحُـلْ إنَ ابْـزَاكَ خَصْـمٌ أوْ نَبـا بِـكَ مَنْـزِلُ
أُحَـارِبُ مَـنْ حَارَبْـتَ مِـنْ ذِي عَـدَاوةٍ وأحْبِـسُ مَالِي إنْ غَرِمْتَ فأعْقِلُ
كأنَّـكَ تَشْـفِي مِنْـكَ دَاءً مَسـاءَتِي وَسُـخْطِي وَمَـا فِـي رَيْثَتِـي مـا تَعَجَّـلُ
وإنْ سُـؤْتَنِي يَوْمـاً صَـفَحْتُ إلـى غَـدٍ لِيُعْقِـبَ يَوْمـاً مِنْـكَ آخَـرُ مُقْبِـلُ
سَـتَقْطَعُ فِـي الـدُّنْيا إذَا مـا قَطَعْتَنِـي يَمِينَـكَ فـانْظُرْ أيَّ كَـفٍّ تَبَـدَّلُ
وَفـي النَّـاسِ إنْ رَثَّـتْ حِبَالُـكَ وَاصِـلٌ وفـي الأرْضِ عَـنْ دَارِ الْقِلَـى مُتَحَـوَّلُ
إذا أنْـتَ لَـمْ تُنْصِـفْ أخَـاكَ وَجَدْتَـهُ عَلَى شَرَفِ الْهِجْرَانِ إنْ كانَ يَعْقِلُ
وَيَرْكَـبُ حَـدَّ السَّـيْفِ مِـنْ أنْ تَضِـيمَهُ إذَا لَـمْ يكُـنْ عَـنْ شَـفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَـل
وكُنْـتُ إذَا مَـا صَـاحِبٌ رَامَ ظِنَّتِـي وَبَـدَّلَ سُـوءًا بِالَّـذِي كُنْـتُ أفْعَـلُ
فَلَبْـتُ لَـهُ ظَهْـرَ الْمِجَـنِّ فَلَـمْ أَدُمْ عَلَـى ذَاكَ إلَّا رَيْـثَ مـا أتحـوَّلُ
إذَا انْصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ الشَّـيءِ لَمْ تَكَدْ إلَيْـهِ بِوَجْـهٍ آخِرَ الـدَّهْرِ تُقْبِـلُ

وإذا كان أبو تمام قد أورد القصيدة في حماسته بكاملها فإن البحتري على العكس من ذلك، فتت أجزاءها وقطع أوصالها، فوزع ما اختاره منها على ثلاثة أبواب مع تغيير في بعض ألفاظ الأبيات التي اختارها، وترك الباقي، فقد أورد البيتين التاسع والعاشر من القصيدة في الباب التاسع، وهو في الاستسلام على الذل بعد الامتناع وهما المقطوعة رقم (103)، يقول معن[1]:

إذا أنْـتَ لَـمْ تُنْصِـفْ أخَـاكَ وَجَدْتَـهُ عَلَى طرَفِ الْهِجْرَانِ إنْ كـانَ يَعْقِلُ

فيَرْكَـبُ حَـدَّ السَّيْفِ مـنْ أنْ تَضِـيمَهُ إذَا لَمْ يكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعدِلُ

كما أورد البيتين الحادي عشر والثاني عشر في الباب الرابع والثلاثين، وهو فيما قيل في قطع من اعترض في ودّه، في المقطوعة رقم(287)، يقول معن[2]:

وكُنْـتُ إذَا مَـا صَـاحِبٌ رَامَ هِجْـرَةً وَبَـدَّلَ سُـوءًا بِالَّـذِي كُنْـتُ أفْعَـلُ

فَلَبْـتُ لَـهُ ظَهْـرَ الْمِجَـنِّ فَلَـمْ أَدُمْ عَلَـى ذَاكَ إلّا رَيْـثَ مـا يَتَحـوَّلُ

([1]) الحماسية رقم (103)، كتاب الحماسة للبحتري، 87/1.
([2]) الحماسية رقم (287)، المصدر نفسه، 186/1.

كما أورد خمسة أبيات منها في الباب الخامس والثلاثين وهو فيما قيل في صحة المودة وحفظ الإخاء، مبتدئاً من البيت الثاني في الحماسية رقم (302)، يقول معن بن أوس[1]:

وإنّي أخُوكَ الدَّائِمُ الْعَهْدِ لَمْ أحُلْ إذا حال دهر أوْ نَبا بِكَ مَنْزِلُ

أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتَ مِنْ ذِي قرابةٍ فأحْبِسُ مَالِي إنْ غَرِمْتَ فأعْقِلُ

وإنْ سُؤْتَنِي يَوْماً صَفَحْتُ إلى غَدٍ لِيُعْقِبَ يَوْماً مِنْكَ آخَرُ مُقْبِلُ

كأنَّكَ تَشْفِي مِنْكَ دَاءً مُخَامِرَاً أذاتِي وما في نِيَّتِي لَكَ مُعْضِلُ

سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيا إذَا ما قَطَعْتَنِي يَمِينَكَ فانْظُرْ أيَّ كَفٍّ تَبَدَّلُ

أما باقي الأبيات فإن البحتري لم يذكرها في حماسته، ويلاحظ أن بعض ألفاظ القصيدة في حماسة البحتري تغاير الألفاظ المذكورة في حماسة أبي تمام[2]، وبهذا التقسيم فقدت القصيدة كثيراً من حيوية الوحدة النفسية وسياقها المنسجم، وظهرت مفككة الأجزاء معزولة المعاني. وبهذا نخلص إلى أن الاختيارات الشعرية في حماسة أبي تمام جاءت في الغالب قصائد ومقطعات متماسكة الأجزاء مرتبطة المعاني متلاحمة النسج يغلب عليها التآلف والانسجام، فيما جاءت الاختيارات الشعرية في حماسة البحتري في الغالب مقطعات شعرية يغلب عليها المعاني الجزئية المحددة والمتمايزة.

3.الإكثار من عدد الأبواب:

لقد أدى إكثار البحتري من المعاني الشعرية التفصيلية وترتيب الاختيارات حسب المعنى الشعري إلى الإكثار من عدد أبواب حماسته، فقد أوصلها إلى (174) باباً، اختص منها (27) باباً للشعر الحماسي، وهذا يرجع إلى أن البحتري كان يأخذ المعاني التفصيلية من المعنى العام، ويجعل كل معنى منها بابا قائما بذاته، ومن ثم كثرت الأبواب لديه، وهو يقصد بالباب مجموعة من الاختيارات الشعرية (قصائد وقطع وأبيات مفردة) لشعراء مختلفين تدور حول معنى جزئي واحد له عنوان خاص به، وهذا في الحقيقة هو أساس اختياره في حماسته.

([1])الحماسية رقم (302)، المصدر نفسه، 192/1.

([2]) ففي الشطر الثاني من البيت الأول في رواية البحتري (إذا حال دهر) وفي رواية أبي تمام (إن ابزاك خصم) وفي البيت الثاني في رواية البحتري (من ذي قرابة) وفي رواية أبي تمام(مِنْ ذِي عَدَاوةٍ)، وفي الشطر الأول من البيت الرابع في رواية البحتري (داء مخامراً) وفي رواية أبي تمام (داء مَساءَتِي) والشطر الثاني من البيت الرابع في رواية البحتري (أذاتي وما في نيتي لك معضل) وفي رواية أبي تمام (وَسُخْطِي وَمَا فِي رَيْثَتِي ما تَعَجَّلُ)

إن البحتري لم ينظر في ترتيب أبواب حماسته إلى فنون الشعر وأغراضه من حماسة ومديح ووصف ورثاء وهجاء...وغير ذلك من الأغراض الشعرية كما فعل أستاذه أبو تمام في حماسته، وإنما عمل على مراعاة المعاني التفصيلية التي تعود الشعراء التعبير عنها في هذه الأغراض الشعرية فجعل كل معنى منها باباً مستقلاً بذاته، ومن ثم كثر عدد الأبواب التي تضمنت المعاني الشعرية لمختلف الشعراء .

تجدر الإشارة إلى أن البحتري في حماسته أولى عناية خاصة بالمعاني التي تقابل (باب الأدب) عند أبي تمام ؛ حيث تمثل هذه المعاني القدر الأعظم من حماسته (136 بابا)، فيما أسقط من حماسته فنوناً رئيسة في الشعر كالنسيب ، والفخر ، والوصف ، والمدح ، والهجاء، فلو أعيد ترتيب اختياراته الشعرية على حسب الغرض الشعري لانتهت إلى أربعة أغراض فقط هي: الحماسة - الشباب والمشيب - الأدب - الرثاء في أشعار النساء.

4.الاقتصار في الاختيار على الشعر القديم:

اقتصر البحتري في اختياراته على الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي، ولم يختر إلا لعدد قليل ممن أدركوا العصر العباسي كبشار بن برد، ومطيع بن إياس، وصالح بن عبد القدوس، أما كبار معاصريه من الشعراء، فلم يختر لأحد منهم حتى لأستاذه أبي تمام ، فقد وقف في الاختيار عند مطيع بن إياس المتوفى سنة 166هـ، أي إنه لم يجار أستاذه أبا تمام في التوسع الزمني للاختيار، فأبو تمام لم يغض في اختياراته من القيمة الفنية لشعراء عصره، فاختار لعدد غير قليل منهم في حماسته، بل إن بعضهم امتد بهم الأجل حتى بعد وفاته، مع أنه توفي قبل البحتري بحوالي نصف قرن.

5.تغليب القيمة الأخلاقية على القيمة الفنية:

لقد كان أساس الاختيار في حماسة البحتري هو المعنى الذي ينسجم مع عنوان الباب؛ بيد أن ما يمكن أن يلاحظ على البحتري في اختياراته هو أن الاهتمام بالقيمة الأخلاقية يغلب على الاهتمام بالبعد الفني، فقد كان اهتمام البحتري منصباً على إبراز المعاني الأخلاقية في حماسته، فالمعنى الواحد يرد بطرق متنوعة، فهذا باب فيما قيل في إخلاف الوعد، وهذا آخر فيما قيل في رعاية الأمانة وترك الخيانة، وثالث فيما قيل في ذم عاقبة الظلم، ورابع فيما قيل في الوفاء، وغير ذلك من القيم الإيجابية والمآثر الحميدة التي كان الأجداد يحرصون عليها في حياتهم، فأراد المؤلف أن تظهر للأجيال في اختياراته الشعرية ليحفظوها، وبالتالي تنعكس على سلوكياتهم وأخلاقهم، ولذلك فقد خلت حماسته من معان كثيرة توافرت في الشعر العربي كشعر الخمر والمجون واللهو والغزل وغيرها من المعاني التي تخرج عن دائرة الأخلاق الحميدة. وبذلك افتقدت اختيارات البحتري إلى التوازن بين جوانب الموضوع وعناصر الفن، وهذا متحقق في اختيارات أبي تمام إلى حد بعيد لا يضيره الاستثناء وهو نادر.

لقد أثارت تفريعات المعاني العامة إلى معان جزئية في حماسة البحتري إعجاب بعض الدارسين المحدثين[1]، فوصفوها بالابتكار والتجديد، ورأوا أن تقصي البحتري للمعاني الجزئية في حماسته"يدل على خبرة حقيقية بآفاق الشعر العربي القديم، ويكلف صاحبه كثيراً من العناء. ولو شاء دارس محدث أن يصنف معاني الشعر القديم لأنفق في هذا سني حياته ما لم يسترشد بحماسة البحتري، ومع ذلك فمن غير المحتمل أن يضيف إليها كثيراً"[2]، بيد أن بعض الدارسين يقدح في حماسة البحتري[3] وترتيب أبوابها للحماسة ويصفه بأنه "ترتيب آلي وأنه أسهم في تدهور الحماسة أكثر مما أسهم في تطورها بوصفها نوعاً أدبياً...إن تصنيفات البحتري لمادة اختياره هي موضوعات محدودة تحديدا دقيقاً وغير مترابطة ومستشهد عليها بأمثلة مباشرة وحرفية... تعكس عقلية البحتري الحرفية وذهنيته المولعة بالتقسيمات"[4].

وأياً كان الأمر فإن البحتري بمنهجه في الإكثار من تفصيل المعاني يكون قد سهل للدارسين أن يحصلوا في يسر وسهولة على الشواهد للموضوعات التي يريدونها، فالعناوين الكثيرة التي تحملها أبواب حماسته أشبه ما تكون بتلك الفهارس الجزئية التي نضعها للموضوعات التي تحتوي عليها الكتب، بيد أنه في المقابل فتت أوصال القصيدة الواحدة وأساء إلى وحدتها النفسية وسياقها المنسجم، من خلال توزيعها على عدة أبواب وترك أجزاء أخرى قد يراها بعيدة عن مجال الاختيار، ولا يحتاج إليها في أبوابه.

([1]) ينظر : المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب ، د.ط، د.ت، ص106.

ـــ دواوين الحماسة، عبد البديع عراق، ص263.

ـــــ كتاب الحماسة بين أبي تمام والبحتري، رشاد عبد النبي، ص466...وغيرهم.

([2]) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص106.

([3]) ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص79.

وينظر: الشعر و الشعرية في العصر العباسي، سوزان بينكني، ترجمة حسن البنا عز الدين، المركز القومي للترجمة، 2008م، ص467.

([4]) الشعر و الشعرية في العصر العباسي، ص467.